الفصل السّابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ ــ ١٩٠٢

الفصل السّابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ ــ ١٩٠٢

١ - البدايات الأولى

٢- التغلغل الأوروبّي

- تاريخ رحلة كلّ بعثة وما جرى لأفرادها

- الواداي

- الواداي والباجرمي

- كانم و بورنو

- إحتلال كانم لفزّان

الفصل السّابع

عهد المهدي السنوسي ١٨٥٩ ــ ١٩٠٢

حين توفّي السنوسي الكبير عام ١٨٥٩ ترك إبنين يافعين هما محمّد الشريف ذا الأربعة عشر عاما ومحمّد المهدي ذا الثلاثة عشر عاما. ويُحكى أن السنوسي الكبير أمر يوما ولديه بتسلّق نخلتين، ولمّا وصلا إلى عاليهما طلب منهما القفز الى الأرض. ولم يمتلك الشريف الشجاعة لفعل ذلك، أمّا المهدي فقفز على الفور، وحطّ على الأرض مدلّلا على ثقة عمياء في "الكرامة " التي يمتّع بها والده، وهكذا لم يلحق به أيّ ضرر، ممّا أشاع عنه بين البدو أن العناية الألهيّة ترعاه. ويروي أحمد حسنين ما كان يتناقله السكان أثناء رحلته الصحراويّة: " أن المهدي كان في مجلس أبيه وأراد الإنصراف فقام أبوه وأصلح وضع حذاء المهدي، وكان قد خلعه قبل أن يدخل على أبيه. وفي ذلك ما فيه من المهابة والتواضع، ثم التفت الى جلسائه وقال: أشهدوا أن إبن علي (السنوسي) أصلح بنفسه وضع حذاء إبنه المهدي. وقد فهم الناس ساعتئذ أنه أراد بذلك إشعارهم بأن الولد لن يخلف أباه فقط ، بل يقوم مقامه أيضا في الصلاح والتقوى ".

ولقد وُلد السيّد المهدي في كهف ببلدة (مسّه) القريبة من (البيضاء) بالجبل الأخضر يوم ١٢ نوفمبر ١٨٤٤ من السيدة فاطمة بنت أحمد الفيتوري الزوجة الثالثة لوالده الإمام المؤسّس[١]، وتلقى تعليمه بمعهد الجغبوب. وكانت زوجته الأولى السيدة فاطمة إبنة (أبو موسى عمران بن بركات الفيتوري) التي تزوّج بها عام ١٨٥٩ بالجغبوب (توفيت عام ١٨٩١)، ثمّ توالت زوجاته حتى بلغ عددهن تسعا[٢].

---

١ وفي رواية أخرى أن مولده كان بمدينة درنة ولكن ذُكرت (مسّه) والبيضاء بهدف اجتذاب قبيلة البراعصة المقيمة بها وبقيّة القبائل الأخرى لصالح نفوذ الإخوانيّة.

٢ يلاحظ أنه تزوّج لأوّل مرّة وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة،كما كانت العادة المتبعة في الزواج المبكر في ذلك الزمان للرجال والنساء. واقترن بزوجته الثانية السيدة حوّاء بنت محمّد أبو زيد عام 1871 بالجغبوب (توفيت عام 1875 وبالثالثة السيدة عائشة الإبنة الكبرى للشيخ وشاعر السنوسيّة الكبير مقرّب البرعصي عام 1872،وبالرابعة السيدة فاطمة الإبنة الصغرى لمقرّب البرعصي بالجغبوب عام 1876 وبالخامسة السيدة عائشة بنت أحمد بن علي ابوسيف الخميشي من سرت عام 1887، وهي والدة السيد إدريس الذي سيتولى زعامة الطريقة ويصبح ملكا للبلاد فيما بعد (توفيت عام 1894)، وينتمي لنفس العائلة عبد الله بوسيف الذي كان شيخ زاوية (عين ماره) ،والسادسة السيدة فاطمة بنت محمّد علي بن إبراهيم العلمي الغماري الذي تولى مشيخة زاوية البيضاء، وهي والدة السيد محمّد الرضا

وعلى الرغم من أن السنوسي الكبير عهد بالزعامة الروحيّة لإبنه المهدي لما توسّمه فيه من النجابة، إلاّ أن قيادة (الإخوانيّة) كان يمارسها فعليا إثنان من كبار الإخوان هما أحمد الغماري، والمدني التلمساني.

وما أن بلغ السيّد محمّد المهدي سنّ الرشد وتولّى مشيخة (الإخوانيّة) فعليّا حتى نشط في نشر الدعوة اقتداء بوالده، فأكثر من إنشاء الزوايا كلما أتيح له. وحسب حجم هذا النشاط والمدى الجغرافي الذي وصل اليه يتضح لنا أن مخطّطه السياسي اتسم بعنفوان ومثابرة أثارتا شكوك ومخاوف القوى الدوليّة التي كانت تتربّص بتلك الأقاليم في ذلك الوقت. فقد بادر منذ عام ١٨٩٥ بنقل مقرّ القيادة من الجغبوب الى الكفرة ابتعادا – كما يبدو - عن الإنجليز الذين احتلوا مصر على مقربة منه، مثلما فعل والده الذي نقل المقرّ من الزاوية البيضاء الى الجغبوب مبتعدا عن الأتراك العثمانيين حكام البلاد والمسيطرين على سواحلها. أي أن المهدي أدرك أن السيطرة الأوربيّة بصفة خاصة على البلدان العربيّة المجاورة، وفقا لمخطّطات التقسيم بينها كما سبق ذكره، قد ضيّق الخناق على حركته، فاتجه صوب ماكان يسمّى بالسودان (الأوسط) ويُقصد به تشاد وما جاورها.

ولقد وصف المؤرّخون ومن بينهم (كامينج) فلسفة الدعوة السنوسيّة المحرّكة لهذا التوجه بأنها تكمن في مبدأ: " أن تقديم التنازلات بقدر الإمكان هو خير من التسليم بما هو زائف ومصطنع " أو بعنى آخر: " قبول أنصاف الحلول خير من الإضطرار لقبول الزائف ". [٣] وكان لهذا التوجّه في التطبيق العملي نتيجتان: السعي للحصول على مجال واسع وحرّ لنشاط الطريقة، حتى لاتجبرها حقائق الواقع على القبول بتنازلات تمسّ العقيدة وتُنقص من هيبتها. وقد وجد السيّد المهدي السنوسي هذا المجال واسعا في الصحراء الليبيّة جنوبا وشرقا. وثانيا: التوغّل في هذه الصحراء إلى المدى الذي تنتفي فيه السيادة التركيّة تحاشيا للإصطدام بها. ولكنه في النهاية وجد نفسه محاصرا بين شرّين: إمّا قبول الخلافة العثمانيّة

الذي سيصبح وليّا لعهد إدريس (توفيت ببنغازي ودفنت بالجغبوب عام 1937)، والسابعة السيدة خيريّة بنت محمّد الطويل عام 1892 بالجغبوب (توفيت عام 1894)، والثامنة السيدة خديجة من عائلة بوسيف بسرت عام 1895 ، والتاسعة السيدة فاطمة أخت الشيخ محمد حسن البسكري بالجغبوب. وجميع هذه التواريخ تقريبيّة لصعوبة تعيينها بدقة في ذلك الزمن، كما يلاحظ أن أكثر الزوجات لم يعمّرن طويلا

٣ (تاريخ برقة المعاصر) مصدر سابق ص 18 ولعلّ المسئول البريطاني سمع عن القاعدة المعروفة في التشريع الإسلامي التي تقول:"دفع الضرر أفضل من جلب المنفعة"؛ فذهب في تفسيرها بشكل معاير، كما رأينا فيما ذكره.

والتبعية لها مع ما يفرضه ذلك من تكيّف بالنسبة للعقيدة، وإمّا الخضوع والإستسلام للنصارى الأوربيين – وهم هنا الفرنسيّون بالذات - الذين واجههم وهم يتسللون في تلك الأصقاع، ويسعون بالحديد والنار للسيطرة عليها. وفي مفترق الطرق هذا إزداد الوعي لدى السنوسيّة بكونها حركة سياسيّة، ونظّمت نفسها لامتشاق السلاح ضد العدوّ الذي اعتبرت أنه اقتحم عليها ديارها.

وإذا كان نشر الدعوة بين الأقوام في تلك الأقاليم السودانيّة كان هو الهدف المعلن للسنوسيّة، فممّا لا شكّ فيه أن السيطرة على طرق القوافل التجاريّة حتى الوصول الى منابع المياه في الإقليم، كانت وراء زحفها الحثيث المثابر. ولهذا اتّخذ الإمام المهدي (الكفرة) منطلقا لهذه الإستراتيجيّة. والكفرة أرخبيل يتكوّن من عدّة واحات صغيرة متناثرة. ولقد سبق للإمام المؤسّس محمد بن علي السنوسي أن أنشأ زاوية في (الجوف) أحد مناطق الأرخبيل، حين أرسل أحد تلاميذه وهو عمر أبو حوّاء ليشرف على تشييدها هناك ولذا سُمّيت زاوية (الأستاذ). أما ابنه السيد المهدي فشيّد زاويته في واحة الجوف وسمّاها (التاج). ويظنّ أن سبب التسمية يتفق مع موقعها على أحد التلال التي تطلّ على جميع أنحاء هذه الواحة، وعيّن الشيخ بوحوّاء مقدّما لها. كما شُيّدت زاوية في واحة (تازربو) التي تقع جنوب (أوجله) و (جالو) وتعتبران مركزي اتصال يربطان الكفرة بالجغبوب.

وبذلك تمكنت السنوسيّة من بسط نفوذها وسط منطقة صحراوية واسعة ونائية عن السلطة المركزيّة التركيّة، وبعيدا عن الرقابة الأوربيّة، محققة بذلك سيادة مستقلة على هذه الأصقاع اللامتناهية التي تبدأ من الحدود الغربيّة لمصر لتصل الى حدود الأطلنطي عبر الصحراء الليبيّة والقبلة وفزّان والصحراء الجزائريّة وأقليم داخل تشاد. وبذلك سيطرت على طرق المواصلات بين البحر الأبيض والسودان الأوسط، ممّا مكنها من استخدام منافذ برقة وسرت على البحر من أجل تسيير تجارتها. وذكر أحمد حسنين: " بلغت الحركة في هذه الطريق حدّا قال لي بدوي عنه إنه كان في وسع الإنسان أن يسير نصف يوم من أوّل القافلة الى آخرها. وكانت الطريق من الكفرة الى (واداي) وعرة وخطرة في تلك الأيام فحفر المهدي بئري (بشرى) و (سارة) في الطريق الموصّلة من الكفرة الى (تكرو) وكانت واحات الكفرة في أيام قبيلة (زويّ) البدويّة التي انتزعتها من قبيلة (تبو) السود، مركزا مهمّا للسطو والإغتيال في صحراء ليبيا. وكان أفراد هذه القبيلة المتمرّدة ميّالين للقتال لا يخضعون لقوة أو قانون، ولا يرحمون من يخترق أراضيهم، فلم

تخل قافلة تمرّ بالكفرة من النهب والسلب والإضطرار لدفع جزية. وجاء المهدي فجعلهم ينزلون عن طلب تلك الجزية لأنه أراد أن يؤمّن الطريق الممتدّة في صحراء ليبيا من الشمال إلى الجنوب وأن ينمّي تجارة تلك الأصقاع، وعمل على ذلك حتى قال لي أبو مطاري، وهو من شيوخ قبيلة (زويّ) في الكفرة: إنه صار في وسع إمرأة أن تسير من برقة إلى واداي بدون أن يتعرّض لها أحد " [٤].

وقبل أن نفصّل في سرد الأحداث التي طرأت بعد مجيء السيّد المهدي لبثّ دعوته وتوسيع نفوذه في هذه الأقاليم النائية، ينبغي تقديم نبذة تاريخيّة عن أهميّة أراضي السودان الأوسط وتكويناتها الجغرافيّة والديموغرافيّة.

١- البدايات الأولى

تعود علاقات ليبيا والليبيين بأغلب أقطار بلدان جنوبي الصحراء المتاخمة، أو ما كان يسمى بالسودان الأوسط وهي: تشاد والنيجر ومالي والقسم الشمالي من نيجيريا (في عصرنا الحالي)، الى عهود غابرة من التاريخ [٥] ولعلّ أقدم من كتب عن الصحراء الأفريقية كان شيخ المؤرّخين هيرودوت (الكتاب الثاني – الفصل ١١٤ – ١١٥) فقد حدثنا في كتابه (التاريخ) عن شباب من قبيلة (الناسامونيس) الكبيرة – وهي من أوائل القبائل التي سكنت ليبيا، وكانت تقطن على طول خليج سرت بما فيه واحة أوجله - وكيف تعاهد خمسة منهم على استكشاف الصحراء جنوبا: " إجتازوا المناطق المأهولة الى المنطقة التي تسكنها الوحوش، وبعد أن ساروا عدّة أيّام رأوا بعض الأشجار النامية في بقعة مستوية فتقدّموا منها وراحوا يقطفون شيئا من ثمارها، وبينما هم كذلك هاجمهم رجال

---

٤ (في صحراء ليبيا) ص ٥٧ - ٥٨

٥ أطلق الجغرافيون القدامى لقب السودان أخذا عن الكلمة العربية - أي القوم سود البشرة - على المنطقة التي تمتد من نهرالسنغال الى نهر النيل، وحين احتلت فرنسا السنغال ومالي والنيجر وتشاد، سمّيت المنطقة حتى الستينات من القرن العشرين بالسودان الفرنسي تمييزا له عن السودان الشرقي أو ما كان يطلق عليه السودان المصري الإنجليزي. أو السودان النيلي. ويسمّى السودان الفرنسي الآن مضافا إليه بوركينا فاسو بدول، **السهل** وتنطق خطأ دول **الساحل**، أذ ان كلمة سهل هي كلمة عربية وصحيحة جغرافيا لوقوع المنطقة في اقليم منبسط هو السهل الصحراوي، وحين تكتب باللغات الأوربية SAHEL ينسى العرب أصلها العربي لأنهم يترجمونها بدول (الساحل)، رغم أن البحر الأبيض يبعد عنها بحوالي ألفي كم وسهوا عن أن حرف H- اللاتيني هنا ، هو (هـ) في العربية وليس (ح) !

قصار القامة – طولهم نصف طول الرّجل العادي - فألقوا القبض عليهم وحملوهم معهم عبر مستنقعات واسعة وصلوا بعدها الى قرية كان سكانها ضئيلي الحجم سود البشرة. وكان يمخر القرية من الغرب إلى الشرق نهر تعيش به التماسيح (الأغلب أنه نهر النيجر). وعلى مسيرة عشرة أيّام من غرب أوجله – كما يقول هيرودوت - تقطن قبيلة (الجرمانتيين) كثيرة العدد وكانوا يفرشون طبقة من التراب فوق الملح ليزرعوا فيها بذورهم، وعلى مقربة منهم تقطن قبيلة اللوتوفاجيين مع أبقارهم التي تسير إلى الوراء بسبب قرونها الطويلة المنحنية حتى تُلامس الأرض !.بعكس بقر الجرمانتيين ذي الخِلقة العاديّة، ويضيف هيرودوت أن الجرمانتيين كانوا يقومون بأسر رجال الكهوف الأثيوبيين – ويقصد بهم السكان السّود الذين ينتشرون جنوبي الصحراء الكبرى وكان يُطلق عليها إثيوبيا وأطلق عليهم أيضا التروجلودايت - وذلك بمطاردتهم بالعربات التي تجرّ الواحدة منها أربعة خيول لأن هؤلاء التروجلودايت سريعو العدو ويأكلون الأفاعي والسّحالي والزّواحف، ويتكلمون لغة غريبة شبيهة بنقيق الضّفادع [٦]. وفي رأي هيرودوت أن الجرمانتيين لم يكونوا من الزنوج بل الأرجح أنهم كانوا أسلاف قبائل التبو، وقد استغلّوا الموارد الطبيعيّة للواحات الفزّانية [٧]، وقد ورد ذكر الجرمانتيين في كتابات المؤرّخ الروماني القديم بليني **Pliny the Elder**، حين أشار إلى الموقعة الحربيّة التي وقعت بينهم وبين قوّات القائد الرّوماني كورنيلوس بالبو **Cornelius Balbus** في القرن الأول الميلادي، وموطنهم كان (وادي الآجال) بفزان وعاصمتهم جارامه **Garama** وقد ثبت من الرّسوم المنقوشة في صخور الصّحراء الكبرى وعلى الجانب الليبي منها، وتُسمّى رسوم تسّيللي **Tassili**، أن العربات التي تجرّها الخيول والثيران كانت هي وسيلة الحروب التي استعملها الجرمانتيون. ويرجّح استعمالها أيضا لنقل السلع وتبادلها، إذ أن الإبل التي أصبحت فيما بعد هي سفينة الصحراء لم يتأكد وجودها إلا بعد الفتح العربي لشمال أفريقيا، مما يدلّ على أنهم جلبوها معهم من آسيا. أمّا الخيول فإنها أيضا لم تكن متوطنة في المغرب بل جُلبت من آسيا عن طريق مصر من قبل الهكسوس الذين غزوها عام ١٧٠٠ قبل الميلاد . ولعل أوّل اتصال مدوّن بين الواحات الليبية والوسط الأفريقي، ورد فيما رواه هيرودوت عن قصّة الشبّان الخمسة المذكورة . [٨]

---

٦ (التاريخ الليبي القديم) لعبد اللطيف البرغوثي ص ٦٨٢ منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١

٧ Jhon Wrigt – Libya chad And the central Sahara – p.11- Hurst +co . London 1989.

٨ مصطفى بعيو - دراسات في التاريخ اللوبي ص ١٧٣، الجمعية التاريخية بجامعة الاسكندرية ١٩٥٣ وكذلك جوتييه - ماضي شمال أفريقيا - ص١٣١ ترجمة هاشم الحسيني ، دار الفرجاني - طرابلس ١٩٧٠

عندما انتشر الفينيقيّون منطلقين من المشرق على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط.أسّسوا باعتبارهم أوّل شعب مارس التجارة متعدّدة الأقطار والأجناس، المستوطنات والموانيء مبتدئين بـ (أوتيكا) وقرطاج، وكلاهما ضاحية بالقرب من تونس العاصمة، ثم صبراته **Sabratha**، و(أويا)، أي طرابلس الآن. وهي تعني بالإغريقية المدن الثلاث، ولبدة **Leptis Magna**، متتبّعين المسارب التي كانت تربط بين تلك المنافذ الثلاثة مع جنوبي الصحراء الأفريقية من ناحية، وموانيء صقلية ومالطا من ناحية أخرى. ولقد لعبت الواحات المنتشرة في الصحراء الليبية، وخاصة في فزان، دورا رئيسيّا في ازدهار الحركة التجاريّة عبر خطوط الإتصال تلك. وانتظمت طرق القوافل الرئيسية آنئذ، وعبر العصوربعد ذلك بالنسبة لليبيا، في الطريق الأول الواصل بين برنو و(كوكا) على بحيرة تشاد، وبين طرابلس مارا ببيلما ومرزق؛ والثاني من (أبيشا) وينطلق عبر (واداي) لينقسم إلى فرعين: أحدهما يعبر جبال تبستي متّجها الى ميناء مصراته، والآخر يمرّ بـ (العنيدي) وبوركو ثم الكفرة و(أوجله) الى ميناء بنغازي. وهناك طريق رئيسي ثالث كان يربط أوجله بالقاهرة عبرسيوه. وغنيّ عن القول إن هذه الطرق تتشعّب عبر الواحات الصحراوية التي تعتبر محطّات حيويّة للقوافل للراحة والتزوّد بالماء والطعام، وتبرز من بينها (كاوار) في النيجر المعاصرة وزويله، الودّان، غات، غدامس، جالو في ليبيا. ولا ننسى أن طرق الحج الى مكة المكرّمة عبر الصحراء الليبية لعبت دورا مهمّا في تجارة القوافل، كما كان الحجيج يعبر الطريق الصحراوي المحاذي لساحل البحر الأبيض والممتد من موريتانيا والصحراء الغربية ليشقّ الجبل الأخضر من برقه حتى القاهرة. وقد تميّزت حركة التبادل التجاري في تلك الحقبة باستيراد الذهب والرقيق من الوسط الأفريقي مقابل الأغذية والملابس من منافذ الشمال الأفريقي وتلك المصدرة إليها من موانيء الضفة الشمالية للبحر الأبيض. أما بالنسبة للحقبة الإسلاميّة، فقد وافانا الجغرافيّون والمؤرّخون العرب بكمّ وفير من المعلومات عن تلك الأقاليم المغفلة في العالم القديم، وكانت كشوفاتهم وما دوّنوه من وصف وانطباعات عما شاهدوه أثناء تجوالهم فيها، مصدرا أساسيّا إعتمد عليه الرحّالة الأوربيّون بعدهم كما سنعرض له في حينه.

أجمع الجغرافيّون العرب على أن دخول الاسلام إلى وسط أفريقيا (السودان الغربي) جاء في فترة مبكّرة عن طريق المبادلات التجارية التقليدية، والإحتكاك الشخصي بأهل الاقليم الذين كانوا وثنيين. وفي الأثناء تمّ لعقبة بن نافع الفهري فتح فزان، بعد إستيلاء عمرو بن العاص على برقة (**٦٤٢ – ٦٤٣**) م إبتداء من (زويله)، وهي بلدة في فزان كانت محطّة رئيسية للتجارة مع السودان الغربي، كما اشتهرت بتصدير الجلود التي عُرفت بالزّويليّة، ويرجّح أنها كانت تأتيها من مناطق الجنوب السوداني، وكذلك اشتهرت بتجارة الرّقيق.

وبعد فتح عمرو بن العاص لطرابلس عقب ذلك، أرسل قائدا آخر من قوّاده هو بسر بن أرطأة الذي فتح ودّان وغدامس (٦٦٢-٦٦٣ م)، ثم اتجه جنوبا إلى أن وصل اقليم (كاوار) الواقع غربي جبال تبستي ويتبع اليوم جمهورية النيجر، ويربطه بفزان وادي يمرّ عبرسفوح تبستي تنبجس المياه من عيون في قاعه، ثم يُكمل الطريق إلى بحيرة تشاد، ويبدأ من جنوب مرزق الليبية بواحة (تمّو) وينتهي عند واحة (بيلما) وكلاهما في النيجر. وكان هذا هوالطريق الذي سلكه المسلمون الأوائل ومن بعدهم الرّحالة الأوربيّون صوب أقاليم السودان الغربي من ناحية الشرق. وهناك طريقان آخران سلكهما الإسلام الى قلب القارة الأفريقية في القرون اللاحقة، أحدهما عبر الساحل الأفريقي الغربي من السّوس الأدنى وأدغشت وسجلماسة، إلى حوض السنغال وما يليه جنوبا. وكان الرحّالة والجغرافيون العرب يسمّونه (غانه). والذين سلكوا هذا الطريق هم (المرابطون) أي الصنهاجيون أتباع عبد الله بن ياسين مؤسّس دولة المرابطين. والطريق الثاني سلكه العرب عن طريق مجرى النيل، ثم انطلقوا من(إسنا) في الصحراء إلى الواحات الداخلة، ومن ثمّ دارفور وكردفان حتى نشروا الإسلام في الواداي وما بعده، وكذلك عن طريق ساحل المحيط بشكل غير منتظم في غضون القرن الحادي عشر الميلادي، أي بعد اعتناق ممالك السودان النصرانيّة للإسلام، وهي (علوه) و(مقرّه) ودنقلة. وكانت وظيفة هذا الطريق أوّل الأمر نقل الحجّاج والمتاجرة من قلب أفريقيا إلى الحجاز عن طريق آسنا و(قفط) و(القصيّر) و(عيذاب) ثم عبور البحرالأحمر [٩] وكان الشريف الإدريسي رائدا عظيما في الرحلات والجغرافيا [١٠].

---

٩ انظر بحث د. حسين مؤنس: (فزان ودورها في انتشار الاسلام في أفريقيا) مجلة كلية الآداب - الجامعة الليبية - بنغازي ١٩٦٩

١٠ هوأبوعبدالله الشريف الإدريسي وينتسب الى أدارسة المغرب ، الذين حكموا (مالاقا) بعد الإطاحة بالخلافة الأموية الأندلسية في قرطبة في النصف الأول من القرن الحادي عشر ميلادي. وُلد ولد الإدريسي عام ١١٠٠ في سبته المغربية التي لجأت اليها أسرته، ومنذ سن الشباب قام برحلات طويلة في الأندلس وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى. وفي العام ١١٣٨ أصبح معلم الجغرافيا في بلاط ملك صقلية ببالرمو (روجيرو الثاني) ويُطلق عليه المؤرخون العرب جرجير، وأهدى له خارطة متكاملة للكرة الأرضية مسبوكة بالفضة وسمّاها (صورة الأرض). وبعد وفاة الملك عام ١١٥٤ ظلّ الإدريسي معلما في البلاط الى نهاية عهد وريث العرش الصقلي ويليام الثاني. ولم يتم العثورعلى الطبق الضخم الذي نقشت فيه الخارطة، غير أن المكتبة الوطنية في باريس استطاعت ان تنسخ منه ٦٨ خارطة مصغّرة. وقد توفى الإدريسي عام ١١٦٦ م. وترك مؤلفات هامة طبع منها لأول مرة في روما في عامي ١٥٩٢ - ١٦١٩ م باللغة اللاتينية كتاب (جغرافية النوبة) على أيدي العالمين G.Sionita و J.Hesronita؛ وفي ليدن بهولندا عام ١٨٦٦ كتاب (وصف أفريقيا وأسبانيا)؛ وفي باريس ١٨٣٦ - ١٨٤٠ ظهر كتابه (قصة رحلات وذكريات) كما ألف مثل سابقيه من الجغرافيين العرب كتاب (المسالك والممالك) الذي صدر عام ١١٦١ وتوجد له أجزاء في اسطامبول (مكتبة

وفي كتابه الشهير(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) سرد لنا رحلاته في الصحراء الليبية وواحاتها الكثيرة مثل زويله وودّان وجالو وأوجله ومرزق وغدامس. أما خارطته التي سمّاها (بلاد سرت الكبرى وسرت الصغرى ودواخل أفريقيا) فقد ظهر فيها من أفريقيا؛ جنوب الصحراء الى حدود كانم. أما ياقوت [١١] فقد أخبرنا في كتابه (معجم البلدان) أن عقبة بن نافع فتح فزان حوالي ٦٤٧ - ٦٥٠ وتوغل جنوبا الى " كورة " كوار، كما أكد ما رواه البكري عن كانم، مضيفا أن أكبرمدن كوار هي " أبوالبلما " أي بيلما أما اليعقوبي [١٢]، فقد اشتهر بكتابه (كتاب البلدان) الذي امتاز فيه بعدم الاعتماد فقط على المصادر التاريخية بل وأيضا على اتصالاته الشخصية بالرواة، ودوّن في كتابه احصاءات ورسوما جغرافية، وشمل وصفه عن أفريقيا بلاد (البجّه) والحبشة والنيجر، بالإضافة الى شرقي أفريقيا. وقد ذكر كوار محدّدا موقعها في جنوبي فزان. وتحدث عن تكوين سكانها الذين كانوا يتاجرون بالرّقيق المجلوب من جنوبها، ومثله فعل البكري [١٣]، ومما ذكره البكري أن بزويله قبر دعبل الخزاعي الشاعرالشهير [١٤] ومن قول دعبل في تمجيد العلويين قصيدته التي مدح بها علي بن موسى في خراسان والتي قال فيها:

حكيم علي باشا) بعد أن ضاع معظمه، وفي اسطامبول أيضا وجد مؤلفه (حديقة المسرّات) الذي يحتوي على ٧٣ خارطة جغرافية.

١١ (هو أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي ، ذو السيرة العجيبة ، إذ ولد العام ١١٧٩ من والدين يونانيين في) بيزانز. وقد أخذ كرقيق في غنيمة حرب، إذ اشتراه أحد التجار العرب المقيمين في بغداد أصله من حما، إسمه مصعب الحموي، وبعدأن أنفق على دراسته وتعلم قواعد اللغة العربية، أرسله للتجارة في البلدان الشرقية فاستغل رحلاته للاطلاع والتعرف على أحوال شعوب العراق والشام ومصروفارس وخوارزم وخراسان، وبسبب خلاف بينهما هجره سيده ، فذاق الأمرّين وتشرّد حتى أنه عرض نفسه للبيع كرقيق، غير أن سيده رضى عنه وعاد في خدمته. وبعد موت الحموي، عكف ياقوت على استيعاب محتويات مكتبة (ميرف)الغنية. وفي مدينة حلب بدأ في تأليف مصنفه الشهير(معجم البلدان) في بداية عام ١٢٢٨ م . إلا أن المنيّة لم تمهله، إذ توفى في ٢٠- ٨- ١٢٢٩ وبهذا المؤلف فتح ياقوت منهجا جديدا في الكتابة التاريخية، التي لاتقتصرعلى البيانات الجغرافية فقط، ولكن أيضا سرد الأحداث التاريخية، مستقاة من مصادر ضاع أغلبها، كما أنه مارس أسلوب الفحص والتقييم النقدي للرواية التاريخية، وأضاف تجربته ومشاهداته الشخصية لما دوّنه من بيانات.

١٢ هوأحمد بن أبي يعقوب من صفا العبّاسي، لم يعرف تاريخ ميلاده ويرجح أن تكون وفاته عام ٨٩٧ م. وهو من نسل عربي، تربى في أرمينيا وتجول وعمل في فارس وخراسان ثم أقام في مصر الى أن توفي فيها.

١٣ أبوعبيد البكري (٨٤٩ – ٩٣٣) صاحب كتاب (المسالك والممالك). وهو الذي فصّل فيه الحديث عن واحات الصحراء الليبية المعروفه في التاريخ.

١٤ كان دعبل الخزاعي من الشعراء الذين ناصروا العلويين وهجوا العبّاسيين، حين حدث الصراع بين الفئتين (موقف العبّاسيين أنهم يتحدّرون من العبّاس عمّ النبي وهذا يجعله أفضل للخلافة من

متى عهدها بالصوم والصلوات ---- قفا نسأل الدار التي خفّ أهلها

أفانين في الآفاق مفترقات ---- ووأين الألي شطّت بهم غربة النوى

وهم خير قادات وخير حماة ---- هم أهل ميراث النبي إذا اعترّوا

كما بكى السيّد الحسين في رثاء طويل جاء فيه:

يا للرجال على قناة يرفع ---- رأس ابن بنت محمّد ووصيّه

لا جازع من ذا ولا متخشّع ---- والمسلمون بمنظر وبمسمع

كما أورد البكري أوصافا لأخلاق الناس وطبائعهم، ومعلومة نادرة عنهم في كتابه (المسالك والممالك) حيث قال : " بين زويله وبلد كانم أربعون مرحلة، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هناك قوما من بني أميّة صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين وهم على زي العرب وأحوالهم ". وهكذا كما رأينا، كانت الإتصالات التي أجراها العرب عن طريق الإكتشاف والرّحلات قديمة تعود الى قرون سحيقة وترافقت بدون شكّ مع رحلات قوافل التجارة بين منافذ شمال أفريقيا بما فيها مصر وأقاليم السودان الغربي المذكورة، عبر الواحات الليبية والجزائرية بالذات. ويذكر (ويللارد) أنه حوالي عام ١٦٠ م وفدت من مراكش أكبر قافلة تتكون من سبعة آلاف رجل وثمانية آلاف جمل وألف حصان متوجّهة إلى نهر النيجر، وقد جاء معها بعض الأوروبيين ورجال المدفعيّة الإنجليز للمساعدة في حمايتها من غارات قطّاع الطرق [١٥] غير أن اكتشاف الأوروبيين وتعرّفهم المتكامل على الاقليم لم يبدأ إلاّ بعد أن قام رحّالتهم في غضون القرن الثامن عشر بزياراتهم له في شكل منظّم، وبتمويل إستعماري ذي أهداف محدّدة. فقد كان أمام جمعيّة " تشجيع إكتشاف دواخل أفريقيا " التي تكوّنت من عناصر فرنسية وبريطانية وألمانية بالذات واجتمعت في "سان آليان" عام ١٧٨٨ م لتنظيم وتوزيع عمليات الإستكشاف بين

عليّ بن أبي طالب، لأن العمّ يحجب إبن العم. إلا أن العلويين يتحجّجون بحقهم في الخلافة لأن عليّا هو أيضا زوج بنت النبي، والبنت أفضل من العمّ).

١٥ جيمس ويللارد "الصحراء الكبرى" ص ١٨٣ اصدار دار الفرجاني - طرابلس ، ليبيا ١٩٦٧.

أعضائها، كان أمامها ما دوّنه " ليون الأفريقي " [١٦] من بيانات هامّة ومن حسن الحظ أنه احتفظ بمخطوط مشاهداته التي تمّت ترجمتها من العربية إلى الإيطالية تحت عنوان " حكايات عن رحلات بريّة وبحريّة ". بعدها تُرجمت الى الإنجليزيّة من قبل **John Pory** أولا عام ١٦٠٠ م ثم صُحّحت الترجمة عام ١٨٩٦ على يد **Robert Brown** . وعلى أثر ذلك تدفّق سيل من الرحالة والمكتشفين، وجميعهم تقريبا كانوا عيونا وعملاء للحكومات الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وهولندا، طافوا وتجوّلوا بصفة خاصة في إقليم السودان الغربي وجمعوا البيانات الدقيقة ورسموا خرائط البلدات والمدن ونقاط انطلاق ومسارب ومحطات قوافل الصحراء، ودوّنوها في مذكرات ودراسات وتقارير. وقد يسّر لهم القيام بمهماتهم التجسّسية قناصل دولهم في أقطارالشمال الأفريقي، خاصة طرابلس وبنغازي في ليبيا، والجزائر وتونس والمغرب الأقصى والقاهرة، عن طريق إمدادهم بالأموال، وتجهيز قوافلهم بكافة المقوّمات، مع إستعمال هؤلاء القناصل للضغوط السياسية على الولاة العثمانيين وموظفيهم في تلك الأقطار.

ففي عام ١٧٤٩ طبع الرحّالة والمؤرّخ الفرنسي الكبير **J.B.Bourguignon d'amville** خارطته عن أفريقيا مبيّنا تقسيماتها الداخليّة، وقد اعتمد في رسمها – بشكل نقدي- على خارطة بطليموس في القرن الثاني للميلاد، وكذلك على خارطة الشريف الإدريسي في القرن الثاني عشر. ثم جاء بعده عام ١٧٩٨ الجغرافي الشهير في زمانه الرائد **James Rennell** الذي رسم خارطته للقارّة،والتي صُحّحت عام ١٨٠٢ موضّحة التطوّرات التي شهدتها أفريقيا وعمليّات اكتشافها، مشتملة على كافة البيانات والمعلومات التي أضيفت إلى المعارف الأوربيّة منذ رحلات **James Bruce** في الأعوام ١٧٦٨ – ١٧٧٧. غير أن (رينيل) الذي اعتمد أيضا على بطليموس والإدريسي وليون الأفريقي (حسن الوزّاني)، خلط بين غانا و(كانو)، و(كاوار) وُضعت خطأ بناحية تبعد ٥٠٠ ميلا عن مكانها الحقيقي مُظهرا إيّاها جنوبي (أوجله) في نقطة تقلّ أو تزيد، وأن نهر النيجر ينتهي بشكل مغلوط بعد أن يجري في منخفض خلال بحيرتين رئيسيّتين في إقليم

---

١٦ إسم لُقّب به أبو الحسن الوزّاني الذي وُلد في غرناطة عام ١٤٨٣ م وتوفى في تونس عام ١٥٥٢ م. وبعد سقوط غرناطة في أيدي الاسبان، رحل الى فاس وهو يافع. وفيها تلقى علومه ثمّ بدأ رحلة طويلة أخذته عبر القسم الغربي لشمال أفريقيا بما في ذلك سلسلة جبال أطلس والصحراء الكبرى،حيث سجّل ملاحظاته وانطباعاته عن المواقع والسكان، كما أتيح له أن يزور إسطامبول والشام والجزيرة العربية وكذلك أمريكا وبعد زيارته لمصر قفل راجعا الى المغرب. وبالقرب من طرابلس فاجأه القراصنة المسيحيّون ونقلوه الى روما كعبد، وباعوه لبابا الفاتيكان ليون العاشر الذي قام بتنصيره وغيّر إسمه من الحسن الى إسم" Gian Leone كناية عن إسم البابا نفسه. وبعد ذلك لصق به لقب ليون الأفريقي.

(وانجارا). وحسب الوصف الأصلي للإدريسي في القرن الثاني عشر، فإن (وانجارا) كانت جزيرة طولها ٣٠٠ ميلا وعرضها ١٥٠ ميلا غنيّة بالذهب ويحيط بها النّيل طول السنة. وواضح أن هذا المنخفض كان يشير إلى بحيرة تشاد، ولكنّه لم يكن في نهاية نهر النيجر.

٢- التغلغل الأوروبّي

إن أهمّ ما جذب الأوربيين إلى أفريقيا، كانت تجارة الرقيق. وأوّل (صفقة) في هذا المضمار حدثت عام ١٤٤١ للميلاد عندما خطف القبطان البحري البرتغالي **Antam Concalves** رجلا أفريقيا وزوجته على الساحل الغربي للصحراء الأفريقيّة، وقدّمهما هديّة لسيّده أمير البحار هنري. ومقابل ذلك كافأه الأمير وأنعم عليه برتبة فارس. وبعد أربع سنوات من هذه الحادثة، قام البرتغاليّون باحتلال جزيرة (أرجوين) في الشاطيء الموريتاني، واتّخذوا من قلعة فيها ميدانا لمزاولة تجارة الرقيق والذهب.[١٧] ومن هنا رغب الأوربيّون في معرفة طرق أفريقيا الصحراويّة، فالفرنسيّون وجدوا نهر السينغال غير صالح للملاحة، والإنجليز تبيّن لهم أن نهر النيجر يصبّ في غابات إستوائيّة ضارّة بالصحة - قبل أن يُكتشف (الكينين) كمادّة تقي من الإصابة عام ١٨٥٠-. ولاستطلاع إمكانيّات التغلّب على هذه الصعاب قرّرت (جمعيّة أفريقيا) الإنجليزيّة إيفاد الخبير **Simon Lukas** (وكان يعمل في بلاط سان جيمس) إلى طرابلس ليتوغّل منها عبر فزّان الى دواخل السودان الأوسط . غير أنه لم يتمكن حتى من الوصول الى فزّان (وقد قال له علي باشا القرمانلي حاكم الولاية آنذاك: إنه سيكون أوّل مسيحي يدخلها – وهذا خطأ بالطبع) وذلك بسبب قيام إضطرابات ضد حكم الباشا في الطريق الى فزّان. ولكن (لوكاس) وأثناء وجوده بمصراته إستطاع أن يجمع معلومات عن الدواخل،وأن يسجّل أوّل تقرير عن إقليم جبال تبيستي، ولئن كانت هذه المعلومات غير دقيقة، إلا أنها اعتُبرت إسهاما هامّا في جغرافية المنطقة لم يُسجّل منذ المعلومات التي دوّنها (ليون الأفريقي) منذ ستّين سنة قبل ذلك. ثم جاءت رحلة **Mungo Park** الى غربي السودان في الفترة ١٧٩٥ - ١٧٩٩. وكانت المحاولة التي تلتها من ناحية الشمال وقام بها (فريدريش هورنيمان) الألماني لحساب الجمعيّة الأفريقيّة البريطانيّة أيضا عام ١٧٩٨، حيث انطلق من القاهرة متجها صوب فزّان. وكانت أول محاولة لألماني يتحدّث العربيّة واعتنق الإسلام. وبعد أن مكث في مرزق لم يستطع مواصلة الرحلة الى بورنو، وعاد الى

17 John Iliffe (Geschichte Africas) S.172 verlag C.H.Beck – Muenchen(2000).

طرابلس ليقدّم تقريره الأولي في ديسمبر ١٧٧٩ وبرفقته محمّد المكني (الملقب ببي النّوبة). وعندما أعاد هورنيمان الكرّة مرّة أخرى عبر مرزق متّجها الى بورنو ومنها الى تيمبوكتو والنيجر،أصيب بمرض (الدوسينتاريا) واختفت أخباره منذ ذلك الحين [١٨].

وهكذا لم تكن رحلات أولئك المكتشفين خالية من المغامرات والمخاطر، اذ تعرّض بعضهم لقطّاع الطرق الصحراويين ودفع حياته ثمنا لهذه المهام. بيد أن السياق لايسمح بسرد تفاصيل قصصهم وما جرى لهم وبالاضافة الى تقارير ومذكرات أولئك الرحالة، فهناك المئات من الكتب التي سجّلت ذلك. وقد قام المؤرخ الليبي مصطفى بعيو بجهد مشكور في هذا المجال، حيث عرض بإسهاب ماعثر عليه من هذه الكتب في مجلّداته الثلاث [١٩].

ويكفي إيراد قائمة بأسماء هؤلاء الرحالة الأوربيين، وما جرى لهم من مغامرات ومصائر كما استُمدّت من تلك المصادر:

---

١٨ جون رايت ص ٥٥ ـ ٥٨

١٩ نقصد بها (المختار في مراجع ليبيا) وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٦٧ والجزء الثاني عام١٩٧٢ عن دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ، والجزء الثالث عام ١٩٧٥عن الدار العربية. للكتاب ليبيا- تونس. وفي هذا العرض لخّص لنا أكثر من ٣٠٠ وثيقة من أعمال هؤلاء المؤرخين عن تاريخ ليبيا في كل العصور، احتلت فيها الدراسات عن السودان الأوسط وتجارة القوافل بينه وبين ليبيا الجزء الأكبر. كما أن الكاتب والمؤرّخ الليبي خليفة محمد التليسي قام بترجمة كتاب (الرحّالة والكشف الجغرافي في ليبيا) لأتيليو موري، صدر عن الفرجاني للنشر عام ١٩٧١. وهو كتاب ضم بين دفتيه جميع الرحلات التي قام بها أولئك المكتشفون الأوروبيّون مع رواية ما جرى لهم، وهوما ورد بأكثر تفصيل في الكتاب المشوّق (الصحراء الكبرى) لجون ويللارد الذي سرد سيرة نفس الرحالة مع تحليل عميق وتصوير بديع لما عايشوه وماخاضوه من مغامرات. هذه الجهود تكمّل كتابي (ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات)الصادر عن دار ليبيا للنشر والتوزيع ـ بنغازي١٩٦٨ و (ليبيا في كتب التاريخ والسّير) الصادر عن نفس الدار وفي نفس السنة.وهما من اختيار وتصنيف د. أحسان عباس ود. محمد يوسف نجم ، وقد دوّنا فيهما ما ذكره أشهر المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى عن ليبيا. وتجدر الإشارة الى الى المجلد الضخم (التاريخ الليبي القديم- من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي) من تأليف د.عبد اللطيف محمود البرغوثي ومن إصدارات الجامعة الليبيّة – دار صادر ١٩٧١ وقد اعتمد فيه على مصادر التاريخ القديم الغنيّة. كما أن مكتبة الفرجاني نقلت الى العربيّة تقرير رحلة فريدريش هورنمان وتقرير رحلة أليكسنر جوردن لينج في (رحلتان عبر ليبيا) الذي صدر عام ١٩٧٤ . وهذه الكتب جميعها أسهمت إسهاما كبيرا في وصف ليبيا تاريخيا وجغرافيا.

تاريخ رحلة كلّ بعثة وما جرى لأفرادها

١٧٨٩ - بعثة وليم لوجاس الإنجليزي وجون الديارد الأمريكي عبرالصحراء، واللذين زارا القاهرة وسيوه وفزان وواحاتها حتى بورنو والنيجر. وقد مات الاثنان في آخر الرحلة.

١٧٩٠ - بعثة الماجور دانيال هاوتون الايرلندي الى (تومبكتو) في مالي، وقد قتل على أيدي القراصنة.

١٨٠١ - فريدريش هورنمان الألماني وبرفقته يوزيف غراند ينبيرج وكلاهما اعتنق الإسلام وأتقن العربية - وقد لقي هورنمان حتفه بمرض (الدوسينتاريا) كما سبق ذكره.

١٨٠٦ - مانغو بارك الاسكتلندي، وقد وصل نهرالنيجر وهويقود ٤٦ جنديا بريطانيا، ماتوا جميعا غرقا. وهو ما مرّ ذكره.

١٨١٩ -جوزيف ريتشي الاسكتلندي وجون بلفورد ليون الانجليزي ورحلتهما عبر الصحراء، حيث مات ريتشي في مُرزق.

١٨٢٠ - والتر أودني، والملازم هيو كلابرتون، والميجرديكسون وانهام. وكانوا أوّل من وصل إلى بحيرة تشاد من بين الأوربيّين، وقد توّغلت البعثة حتى نهرالنيجر. ومن ذلك التاريخ بدأ الإستكشاف الأوربي لأفريقيا حسب (ويللارد). وقد لقي الأربعة جميعا حتفهم في تلك الرحلة.

١٨٢٦ - الميجرجوردن لينج الانجليزي، وكان قد تزوّج عام ١٨٢٥ بابنة وارنجتون القنصل البريطاني في طرابلس وصاحب النفوذ القوي. ورافقه في رحلته الشيخ الباماني من أعيان تومبكتو.

١٨٢٨ - رينيه كاتييه الفرنسي الذي اتّجه الى تمبكتو من الغرب ومنها الى طنجة.

١٨٣٥ - الدكتوردافيدسون وقد وصل الى تمبوكتومن مراكش،ومات في الصحراء.

١٨٥٠ - (ريكاردوسون) الذي كان مكلفا بمكافحة الرّق من قبل الجمعيّة الإنجليزيّة ومعه (أوفيرفيج) و (بارت) و (فوجل). وهم من الألمان، وقد اتّجهوا من طرابلس قاصدين بحيرة تشاد ومنها الى تمبوكتو. وقد مات ريكاردسون عام ١٨٥١ في بورنو ومات أوفيرفيج عام ١٨٥٢ في بحيرة تشاد، وقتل فوجل عام ١٨٥٦ بأمرسلطان واداي بعد

وصوله هناك، ولم ينج إلا بارث، الذي ولدعام ١٨٢١ في هامبورج ومات عام ١٨٦٥ في برلين، بعد أن دوّن معلومات قيّمة عن السودان الأوسط.

١٨٥٩ - ١٨٦١ - بعثة (دوفيرييه) في بلاد الطوارق، وقد ورد ذكره ودوره أثناء الحديث عن تاريخ السنوسيّة.

١٨٦٢ - فون بورمان الألماني وقد ولد في بوتسدام عام ١٨٣٥، وكان أوّل من وصل الى (واو الكبير) وهو يبحث عن مصير فوجل، وقُتل هو الآخر شمالي بحيرة تشاد.

١٨٦٧ - جيرهارد رولفس الألماني الرّحالة الشهير والذي جاء الى ليبيا والسودان الأوسط يحمل إسما إسلاميّا وفي حماية شيخ مغربي عام ١٨٦٤، قادما عبر طريق توات - غدامس، وعبرلاجوس - طرابلس عام – ١٨٦٥ - ١٨٦٦. وقد قيل أن الأجهزة الفرنسيّة الفرنسيّة قد لاحقته للإشتباه في دوره في انتفاضة الجنوب الجزائري التي حدثت عام ١٨٧١. وفي عام ١٨٨٤ أصبح قنصلا لألمانيا في زنجبار. كما ورد في وثائق الخارجيّة الفرنسيّة أنها كانت تتوجّس من أن إتصاله بالسيّد المهدي شيخ الطريقة السنوسية آنئذ، جرى ضمن محاولة لعرقلة الزحف الفرنسي في أفريقيا.

١٨٦٩ - الآنسة تينيي الهولنديّة والتي قامت برحلة مغامرة من طرابلس قاصدة بحيرة تشاد، ولكنها قُتلت بالقرب من مرزق.

١٨٦٩ - ١٨٧٤ - جوستاف ناختيجال الرحّالة الألماني المعروف الذي ولد عام ١٨٣٤ ومات عام ١٨٨٥، وقد تجوّل عام ١٨٦٩ في منطقة تبستي وتشاد، وعاد عن طريق دارفور ومصر. وفي عام ١٨٧٢ عُيّن قنصلا في تونس ثم مات في أفريقيا الشرقيّة وهوفي خدمة سلك بلاده الدبلوماسي.

١٨٧٣ – ١٨٧٤ - بعثة دورنو - روبيير - جوبييرالفرنسيين الثلاثة، والتي سارت من الجزائرإلى تمبكتو، وقد قتلوا جميعهم بالقرب من غدامس.

١٨٧٦ - بعثة مجموعة القسس الفرنسيين البيض إلى تيمبكتو. وقد قُتل منهم خلالها ثلاثة رهبان قرب واحة المنيعة بالجزائر.

١٨٧٧ - أرفين فون باري الألماني الذي أراد التوجه إلى تمبكتو عن طريق الهوغا، ولكنه قتل في الصحراء.

١٨٨٠ - أوسكار لينز الألماني الذي وصل الى تمبوكتو ومات هناك.

١٨٧٩ – ١٨٨١ - بعثة الضابط الفرنسي فلاترس، والذي بدأ رحلة إستطلاعيّة تمهيدا لتنفيذ مشروع بناء خط سكة حديد يربط الجزائر بالسودان، عبر النيجر، بعد أن سبقتها بعثتان أخريان قدمتا معلومات أوّليّة عن المنطقة إلى السلطات الفرنسيّة في الجزائر، وقد وقع أفراد البعثة الكبيرة وعددهم ١٨٥ ضابطا وجنديا في كمين نصبه لهم طوارق الهوغار وغالبيّتهم يستوطنون الجزائر. ومات فيه تسعون فردا منهم. وقد أخبر عن ذلك - حسب الوثائق الرسمية الفرنسية والتركية- الشيخ إيخنوخن زعيم الطّوارق الليبيين، وغالبيتهم من الأزقار، في رسالة موجّهة منه إلى الحاج طاهر البوصيري الذي كان عميلا للفرنسيين في غدامس. وأثرت هذه المذبحة تأثيرا سلبيّا على فكرة مشروع سكك الحديد الصحراوي، كما أنها أجّجت الحقد، وزادت من قسوة القمع الفرنسي للحركات الوطنيّة المناوئة،وعلى رأسها الحركة السنوسية.

١٨٨٥ - بعثة القسس الفرنسيين البيض الثانية إلى تمبكتو. وقد راح ضحيّتها ثلاثة رهبان قتلوا بالقرب من غدامس.

١٨٨٥ - رحلة الدكتور بالات الألماني من تونس الى تمبوكتو. وقد لقي فيها حتفه.

١٨٨٩ - رحلة (كميل دول) الفرنسي من مرّاكش إلى تمبكتو. وهناك ذبحه أدلاؤه وهو نائم.

أي أنه في خلال ١٠٠ سنة من رحلات الجغرافيين والمكتشفين الأوروبيين في الصحراء والسودان الغربي سواء بقصد تحقيق المطامع الإستعمارية أو مطاردة تجارة الرّقيق، سقط منهم حوالي ١٦٥ ضحايا لهذه المهام دون أن نأتي على ذكر جميع الرحّالة الذين طافوا بالأراضي الليبية، واقتصرنا على أيراد أسماء ومصائر البعثات التي تجوّلت في أقاليم السودان. وهو ما يقتضيه البحث في هذا الفصل، ومن بينهم رحّالة معروفون أمثال (دوفيرييز) ورولفس وناختيجال، الذين لعبوا أدوارا لصالح مطامع دولهم أثناء عمليّات لتصدّي للإستعمار. وسيتعيّن التعرّض لهذه الأدوار في سياق الفصول الأخرى من الدراسة. ويهمّنا في هذا البحث التركيز على الأقاليم السودانية جنوبي ليبيا، وهي (الواداي) و(كانم) و(بورنو)، لأنها ستكون مسرحا للصراع الطويل بين شعوب تلك الأقاليم، تقودها حركات وطنيّة أبرزها السنوسيّة، وبين قوات الغزو الإستعماري الفرنسي.

الواداي

وهواقليم يقع في شمال وسط أفريقيا تحدّه شمالا الصحراء الليبية وشرقا دارفور، إحدى ولايات جمهورية السودان، ويمتد غربا وجنوب غرب إلى كانم وباجرم،وجنوب شرق الى (داررونجا). ومن خصائصه الطبيعية أنه سهل منبسط الجزء الأكبرمنه موحش ذوكثبان رملية يرتفع - ١٥٠٠ - قدم عن سطح البحر ويشكل جزءا من الأرض الطينية لحوض بحيرة تشاد، كما تتخلله الهضاب التي يبلغ ارتفاع بعضها على هيئة شبه دوائر تنتشر من تيبستي الى دارفور: ففي الشمال الشرقي ينتصب جبل (دارتاما) على مرتفع يتراوح ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قدما وأعلاها قمة (نيبري) التي تبلغ ٣٩٣٧ قدما وهناك بعض الأراضي المعشوشبة، ومع أن السطح غالبا ما يكون رمليا الا أنّه توجد مساحات ذات تربة سوداء تصلح لزراعة القطن، وفي أقصى الشمال الشرقي تجري بعض الوديان والنهيرات الصغيرة.

والتركيب السكاني للواداي يحتوي على مزيج من الزنجانيين (شبه الزنوج) والزنوج والعرب والفولا والتبو، أما المايا فيمثلون النسبة الغالبة منهم، وهم من أصل -نوبي ويقطنون الاقليم الشمالي الشرقي. وفي عهد السلطنات كانوا حلفاء للقبائل العربية. وعاصمة الواداي هي (أباشر) التي كانت تنطلق منها القوافل تمخر الصحراء عبرالكفرة الى بنغازي. وهناك طريق آخر للحج يسلكه أهل أفريقيا الغربية في طريقهم الى مكة، ينحو شرقا من خلال دارفور والخرطوم. أمّا أهم محاصيل الاقليم، فهي الذرة والذخن والقطن والنيلة (الصبغ الأزرق) والنسيج والمصنوعات الجلدية، والعاج وريش النعام. وكانت تصدّر الى طرابلس وبقية الموانئ الليبية، كما أن هناك تبادلا تجاريا في الماشية والبن مع السودان ونيجيريا. وكانت واداي مركزا لتجارة الرقّ يؤسر العبيد فيها أثناء الغارات أو على هيئة عطايا مقدمة من (الباجرمى) وكانم والأقوام الأخرى. وظلت الواداي نقطة لالتقاء الثقافتين العربية والزنجية. ويدين غا لبية سكانها بالإسلام، ولكن العرق الزنجي كان هو الحاكم فيها. وفي العام ١٦٤٠ م قام (الماي) عبد الكريم باحتلال المنطقة واجلاء (الطنجور) عنها، وهم من أصل عربي. بعدها قاسى واداي من حروب أهلية طاحنة وغزوات كثيرة متبادلة. وسيتبين لنا كيف دخلت الطريقة السنوسية إليه

بواسطة سلطانه محمد الشريف الذي تولى الحكم من ١٨٣٨ – ١٨٥٨ م، وهي فترة زعامة مؤسّس الطريقة السنوسي الكبير، وبذلك ترسّخت سلطته[٢٠].

الواداي والباجرمي

بعد الإجتياح الفرنسي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومن خلال الإتفاق الإنجليزي الفرنسي المعلن في ٢١ مارس ١٨٩٩ اعتُبرت الواداي ضمن النفوذ الفرنسي، فتنازعتها الحروب الأهلية. وحين قُتل السلطان إبراهيم عام ١٩٠٠ وحلّ محله أحمد غزيلي، أمر بأن يُقضى على غريمه (أصيل) ممّا أرغم أصيل على الهروب والإلتجاء لدى الفرنسيين في الغرب. و بعد فترة وجيزة (نوفمبر ١٩٠١) عُزل أحمد عن العرش، فسعى الفرنسيون إلى التفاهم مع خليفته داوود مُرَّة والذي سرعان ما اعترف للفرنسيين في نوفمبر ١٩٠٣ بالسيطرة على كانم وباجرمي وأقاليم أخرى، غير أنه في ربيع ١٩٠٤ قام أهل واداي - بإيعاز من السنوسيّين، كما قيل - بهجمات على قواعد الفرنسيين في إقليم شاري وغنموا الكثير من العبيد. واستمرّت معارك متقطّعة بين الجانبين لعدّة سنوات. و هذا أدّى بالفرنسيين إلى تعزيز استحكاماتهم وتقوية موقع حليفهم أصيل وفي عام ١٩٠٨، ومرّة أخرى بإيعاز من السنوسيين، أعلن داوود مُرَّة الجهاد. وكان أن هُزم جيشه الذي توزّع على هيئة عقداء Aguids أو لوردات حرب إقطاعيين. وما أن جاء عام ١٩١٢ حتى استسلمت الواداي تماماً للفرنسيّين وألغيت السلطة التي كانت ذات نفوذ، على الرغم من أن السلطات في المناطق الصغيرة مثل دارتاما (بين الواداي ودارفور) إحتفظت بكياناتها تحت الحماية الفرنسية.

في الأعوام ١٩١٣ – ١٩١٤ اجتاح الواداي قحط مريع و قضى على أعداد كبيرة من السكان. ووصف الكولونيل **Jeantilho** الوضع قائلاً: " لقد قدّر عدد سكان الواداي من قبل ناختيجال بأكثر من مليونين عام ١٨٧٢ هبط إلى ٣٠٠,٠٠٠ حين وصلت الى هناك " (١٩١٧) ولم تستبق أباشر إلاّ القليل من مجدها الغابر، ولكن أعيد بناؤها عندئذ بالتدريج من قبل الفرنسيين. كما أن واداي لم تتأثر إلاّ قليلا بنشاط السنوسيين أثناء الحرب العالمية الأولى؛ فاحتلال دارفور من قبل قوات حكومة السودان عام ١٩١٦ أشاع النظام في المناطق المتأخم، ثم أدّى إلى رسم خط الحدود عام ١٩٢٣ . وقام الفرنسيّون بالقضاء المبرم على تجارة العبيد، إلا أن التجارة الأخرى العاديّة إزدادت لا سيّما مع السوادان.

---

٢٠ الموسوعة البريطانية ص. ٢٦٥ - مرجع سابق.

أما الباجرمي، فحين بدأ الغزو الفرنسي لهذا الإقليم الذي يقع جنوب شرقيّ بحيرة تشاد عام ١٨٩٥ سعى السلطان جاورانج **Gaurang** - الذي تحطّمت قوّاته حين أخضع المغامر رابح البلاد [٢١] - إلى الإستعانة بالفرنسيين، وأبدى استعداده للقبول بحمايتهم. ولهذا وقع إتفاقية مع **Emile Gentil** عام ١٨٩٧، ووافق السلطان على أن يمدّ القوّات الفرنسية بالطعام مقابل منحه الإستقلال الذاتي. وبعد هزيمة رابح في أبريل ١٩٠٠ وُقعت اتفاقية أخرى عام ١٩٠٣ وتنازل السلطان عن مطالبته بالضّفة اليسرى لنهر شاري، وتنازل عن حقه في فرض الرّقيق على السكان الخاضعين لسلطته. ومقابل ذلك حصل على ١٠٠ حصانا و١٠٠ رأسا من الماشية و ١٠٠٠ من **Thalers** – وهي نقود فضّيّة – كما وُقّعت إتفاقيّة نهائيّة عام ١٩١٢ حين، أحكمت القوات الفرنسية قبضتها على المزيد من أراضي الباجرمي. وأثناء إدارة الوالي **Merllit**، قام عام ١٩١٥ بتعيين العديد من مساعدي السلطان في الوظائف، أما القضاء في أمور الجريمة و جمع الضرائب فقد قام بها الفرنسيون. وبعد وفاة جاورانج عام **1918** حلّ محلّه عبد القادر الذي خلفه يوسف عام ١٩٣٥. ويتكوّن السكان بشكل رئيسي من: الفولاني والعرب وهم مسلمون، بينما يؤمن الزنوج في الجنوب بمعتقداتهم التقليدية الوثنية. واعتبارا من العام ١٦٠٠ وأثناء حكم السلطان عبد الله السلطان الرابع أصبح أغلب السكان مسلمين.

وقد تعرّف الأوروبيون على الباجرمي وبقية الدويلات القويّة الأخرى كالواداي وبورنو وكانم لأوّل مرّة، حين تسلل **Dixon Denhan** إلى بحيرة تشاد عام ١٨٢٣ ،ثم عُرفت التفاصيل عن المنطقة خاصة من **Heinrich Barth** الذي اعتقله الباجرميّون عام ١٨٣٥ ، ومن **Gustav Nachtigal** الذي تجوّل فيها عام ١٨٧٢ وخلال القرن التاسع عشر خاضت الباجري حروبا مستمرّة مع جيرانها خاصّة برنو والواداي. وكانت السلطنات الأخرى تنتصر عليها. وفي عام ١٨٧١ كانت أجزاء واسعة من الباجرمي خاضعة للواداي تدفع له الجزية [٢٢].

كانم و بورنو

بورنو إقليم يقع في جنوب غربي بحيرة تشاد (أكثر من ٤٠ ألف كم مربع) وهو الآن ولاية تابعة لنيجيريا، كان أحد أشهر وأطول إمبراطورية سودانية عمرا، ألا وهي

---

٢١ هو مغامر من السّودان الشرقي سيأتي الحديث عليه.
٢٢ دائرة المعارف البريطانية ص ١٠٣٧

إمبراطورية (كانم - برنو) والجزء الأكبر من الإقليم يقع في حزام السافانا مع سهل رملي منبسط تتخلله صخور مساميّة حمراء في القسم الغربي منه.

في القرن الثامن للميلاد تعرّضت كانم الواقعة مثل برنو شمالي بحيرة تشاد، والتي كانت تسكنها أقوام زنجية و ثنيّة تمتهن الزراعة وتسمّى (So) سو، تعرّضت لغزو السيفيين (وهم قوم من الفرسان غير الزنوج الذين بسطوا سلطتهم على البلاد. والسيفيون يُزعم أنهم يتحدّرون من سيف بن ذي يزن البطل الحميَري في القرن السادس الميلادي، والذي دعا الغساسنة إلى تحرير اليمن من حكم أكسوم (الحبش). ولا يُرجّح أن (سيفا) ذهب بنفسه إلى كانم. إذ أن المؤسّس النشيط للأسرة وأدل ماي (أي ملك أورنيس) كان دوجو وهو حفيد لسيف. وعلى أساس هذا التاريخ يكون قد حكم العام ٨٠٠ ميلادية.

ويتّجه الرأي المعاصر إلى القبول بما دوّنه المؤرّخون العرب عن تاريخ السودان الأوسط وانطلاقاً من اليعقوبي عام ٨٩١ ثمّ من جاء بعده، إلى أن الغزاة كانوا ينتمون إلى زغاوة، وهم تجّمع ضخم متألف من الرعاة الليبيين الذين كانوا في ذلك الزمان يسيطرون على القسم الشرقي من الصحراء الكبرى، فأي تأثير يمني أو نوبي في كانم القديمة جاء على الأرجح بشكل غير مباشر.

في البداية فصل السيفيّون أنفسهم عن الزنوج الذين يحكمونهم وتحاشوا التزاوج معهم. ولكن بسبب التواصل مع الرعاة الصحراويين تطوّرت التجارة بين كانم و شمال أفريقيا عن طريق فزان. ومن هنا برزت بلدة (نجيمي) كمركز تجاري للبلاد ومن ثمّ كعاصمة سياسية لها. ومع التجارة وفد الإسلام إلى كانم. وأول حاكم مسلم لها كان هو (أمّ) ١٠٨٥ - ١٠٩٧.

ويبدو أن عملية تحوّل السيطرة الرعويّة المتقلبة إلى دولة إسلامية رسمية، بدأت مع حكم (دونوما) إبن أمّ في الفترة من ١١٥٠ – ١١٩١. وبالتجارة والحج نشأت إتصالات منتظمة مع تونس ومصر، وأدخلت مفاهيم الشريعة الإسلاميّة والإدارة و نظام الضرائب، وكذلك الإبتكارات المادية مثل البناء بالآجر المحروق، تلك الإبتكارات التي طعّمت بأفكار التشاور بدلا من الأساليب الإقطاعية التي كانت سائدة في الأزمنة الرعوية، وتشكل جيش نظامي مكوّن من فرسان الأتباع الرعاة والمجنّدين الزنوج الذين يستعملون السّهام و الرّماح. و هكذا نشأت إمبراطوريّة وصلت إلى أطراف فزّان الشمالية، وأدّت إلى استعمار بورنو. ومع الإستقرار السياسي بدأ السيفيّون في الإندماج مع الزنوج المغلوبين. فإسم سليم

ـ أي الأسود ـ لقب به الماي عبد الجليل (١١٩١ ــ ١٢٢٠) وبهذه الطريقة نشأ شعب (الكانوري) ووُلدت لغته [٢٣].

إحتلال كانم لفزّان

عندما كانت أسرة بني خطّاب البربريّة تسيطر على فزّان، وزحفت سلطة كانم من الجنوب لتسيطر على معظم الطريق الموصّل إلى فزّان، أمكن للسلطتين كبح جماح قطّاع الطرق من الرعاة. غير أنه في العام ١١٧٢ ــ ١١٧٣ أطيح ببني خطّاب على يد المغامر المملوكي شريف الدين قراقوش، وبذلك تدهورت أحوال طرق التجارة. وفي منتصف القرن الثالث عشرة استطاع حاكم كانم (الماي) دوناما ديلامي بقوّته المتعاظمة (في الفترة من ١٢٢١ إلى ١٢٥٩) أن يتدخّل في حركة التجارة. وحتى يضمن حماية تبادلها مع طرابلس الغرب والشرق الأوسط، ويحول دون تحويلها إلى مسارب أخرى جانبيّة، قام بإلحاق فزّان بمملكته، أغلب الظن بمساعدة من التبو، وعيّن حاكما - يرجّح أنه كان من التبو أيضا- في عاصمة جديدة لفزّان هي تراغن ــ ما بين مرزق وزويلة- وربّما كانت مبادرة الماي دوناما السياسيّة والعسكريّة هذه اتبعت طريقا قديما للتغلغل شمالا قامت به أقوام أخرى سبقته. وفي حوالي ١٣٠٠ ميلادي كانت كانم مركزاً سودانياً للحضارة الإسلامية تضاهي مالي في الغرب. إلا أن الغيرة بين الأسر وبروز جماعة مضادّة من الغزاة الرعويّين أي (البولاله) أدّت جميعها إلى تخريب وسقوط الإمبراطوريّة. وما أن جاء عهد على دوناماني (١٤٧٥ ــ ١٥٠٥) حتى استطاع السيفيّون إستجماع قواهم في ولايتهم السابقة بورنو، وجعلوا من (نقازرقامو) عاصمة إمبراطورية جديدة. وخلال القرن السادس عشر تعزّزت باستمرار قوّة المملكة المستعادة. وصار سكان ممالك الهوسا الشرقية دافعين للجزية، كما أعيد احتلال كانم مع ترك ادارتها للتابعين من قبائل البولاله، وضمّت (أير) إلى سلطنة بورنو، واستؤنفت العلاقات مع تونس، ووصلت الإمبراطورية الجديدة قمّتها تحت حكم إدريس ألوما (١٥٧٥ ــ ١٦١٥). وبفضل تردّده المبكر على الحجّ فقد جلب إدريس معه الأسلحة الناريّة والقوّاد العسكريين الأتراك إلى بورنو، ممّا مكنه من بناء قوّة هائلة جعلته ليس مسيطرا فقط على الدويلات المجاورة، ولكن مكنته أيضا من أن يفرض سلطته والشريعة الإسلامية على الأتباع الذين يستعصى حكمهم في مناطق نفوذه. وحافظ أبناء إدريس من بعده على منجزاته طيلة خمسين سنة. إلا أن

٢٣ دائرة المعرف البريطانيّة ص ٩٧٢

المايات - جمع مايا أيّ السلطان أو الملك - أخذوا بأسباب الحياة المنعّمة وملذّات القصور بشكل مفرط، فانحطّت الإدارة وضعُفت الإمبراطورية تحت ضغوط الرعاة التوارق من قبائل الصحراء في الشمال وقبائل (كواراخا) في الجنوب، وحلّت مع الهوسا، مثل (كانو) و(كاتسينا)، محلّ بورنو كمراكز مسيطرة على تجارة السودان مع شمال أفريقيا.

في أوائل القرن التاسع عشر ظهرت على المسرح قوّة سياسيّة جديدة، عندما أدّت حروب الجهاد التي شنّتها قبائل الفولاني ضد ملوك الهوسا، إلى إقامة إمبراطورية (سوكوتو) تحت قيادة (عثمان دان فوديو) وإبنه محمد بيللو. وكان أن هوجمت بورنو عام ١٨٠٨ . وقد سبق ذلك تسلّل الفولاني إليها منذ القرن الثالث عشر وطرد (الماي) من (انجازارقامو)، غير أن نداءه بطلب المساعدة لقى استجابة من مرابط كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ويُلقب بالأمينو، الذي قاد حركة إحياء وتجديد وطنيّة عجّلت بطرد الفولاني وجعلت منه الحاكم الحقيقي، إن لم يكن السيد المطلق لبورنو، وأصبحت (أكوار) العاصمة الجديدة. وعندما مات الأمين عام ١٨٣٥، وحاولت البقيّة الباقية من السيفيين إبعاد إبنه عمر، هُزموا وقُضي عليهم، وتقلد عمر السيادة الملكيّة المطلقة بلقب (شيخو). وفي عام ١٨٩٠ احتُلّت بورنو من قبل رابح. ولكن ما لبثت أن سقطت في فلك النفوذ الأوروبي. وفي عام ١٩٠٢ احتُلّت بورنو من قوات **Frederick Lugad** (فريديريك لوجارد) البريطانية، وقام بتنصيب خليفة شيخو الذي قتله رابح، وأعلن بورنو ولاية من ولايات المحميّة الإنجليزية في شمال نيجيريا. ومنذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ الإقليم بتاريخ الشمال النيجيري.

أما التكوين السكاني في بورنو فقد اتسم بامتزاجه بالعديد من القبائل ذات الأعراق واللغات والثقافات المتباينة، نتيجة لتاريخ تلك الإمبراطورية. وجنس الكانوري هو الجنس الغالب على السكان وهم يقطنون الحوض الشرقي لتشاد. وأخيرا أصبحت بورنو أوسع ولايات القطاع والمقرّ الرئيسي لشيخو. وفي عام ١٩٦٠ كوّن الكانوري مع عصبيّات و جماعات الكانيمبو حوالي نصف السكان وكان عددهم ١,٨٣٣,٢٠٩ نسمة، ورغم سواد جلدتهم وتقاطيعهم الزنجيّة، إلا أن أصولهم قد تتضمّن أرومة بربريّة، ولغتهم لا هي اللغة البربريّة التي يتكلمها طوارق شمال تشاد، ولا اللغات النيجرية، فهي شقيقة للغة (التيدا) التي يتكلمها (التبو) في منطقة تيبستي جنوب شرقي الصحراء. وتسود الشريعة الإسلامية - خاصة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية - بين السكان الكانوري، وهم كغيرهم من بقية الأعراق يتحدّرون من أب واحد **(Patrilineal)** باستثناء الفولاني الذين يتميّزون بحمل علامات خاصة (حجامة) في الوجه، أمّا علامة الكانوري، فهي خطّ حجامة عمودي في

الجبهة - يشاركهم فيها كل من البادي والتيدا - والسكان الذين يمارسون دون غيرهم الحياة الريفية في بورنو هم: (الشعرا) العرب وكان عددهم ٩٨٩٠٩ عام ١٩٦٠ والفولاني ١٦٨,٩٤٤، وكانوا قد وصلوا متأخّرين. وفي القرن التاسع عشر إقتطع الفولاني إمارات الحذيجية في ولايتي (كانو) و(باوتشي) في مقاطعة بورنو. كما أن الكانمي دعا إلى أن يقوم الشعرا بإخضاع أولئك السكان الذين كانوا يقيمون في وسط برنو[٢٤].

تعمّق العلاقات في العهد القرمانلي

رأينا فيما سلف أن الإسلام بدأ انتشاره في مناطق السودان الأوسط - إنطلاقا من الواحات الليبية - منذ فتح عمرو بن العاص لليبيا (٦٤٢ – ٦٤٣)[٢٥].

ويحدّثنا جون رايت في كتابه الممتع المليء بالمعلومات (ليبيا و تشاد و الصحراء الوسطى) عن سطوة المسلمين التجاريّة - في القارّات الثلاث - و أسلوبهم الفريد في مزاولة التجارة وبثّ المدنيّة، وكيف استخدموا الشريعة في تسيير شئون المجتمعات المحليّة، وفي نفس الوقت استطاعوا أن يجذبوا السكان الذين اختلطوا بهم إلى اعتناق الدين الجديد، حتى لا يقعوا عبيدا وهم كفار. أما في شمال أفريقيا فقد استطاع التجّار المسلمون أن ينشئوا المدنية بمحاذاة المجتمع المحلي، لأن الإسلام يتجذّر في المجتمع الحضري، كما اتخذوا من الأفريقيّات أزواجا وجواري وإماء لخدمتهم في البيوت. وقد استمر ازدهار الأسواق التي أنشأوها إلى ما بعد وصول الأوروبيّين في القرن الخامس عشر. ثم يشرح (جون رايت) أن من أسباب إقبال الأفارقة - بما في ذلك حكامهم - على اعتناق الإسلام، كونه يقدّم نظاما إجتماعيّا كاملا تقريبا، مع ربطه للسكان المحليّين بالعالم الخارجي عن طريق ضمّهم إلى (الأمّة)، كما أن الشريعة أعطتهم ما يحتاجون اليه من سلوك يقنّن شئون الحياة، مقرونا بنشر واسع للفكر واللغة العربيّين المرموقين [٢٦] وقد مرّ بنا نشوء وتطوّر العلاقات التاريخيّة والديموغرافيّة بين ليبيا وبلدان السّودان الأوسط منذ أقدم العصور،

---

٢٤ دائرة المعارف البريطانية ص ٩٧٢

٢٥ ردّد الكثيرون - و ما يزالون - أن الإسلام دخل تلك البقاع من الصحراء الكبرى على يد السنوسيّة. وهذا ليس صحيحا كما دللت آثار المؤرخين العرب والتي المحنا إليها. علما بأن السنوسية ساهمت في نشره بين بعض الأقوام الوثنية في تيبستي بالذات، كما نشرت عقيدتها في فهم الدّين، وصحّحت المفاهيم المغلوطة عن الإسلام عند أقوام أخرى، إذ اختلطت لديهم بالطقوس الوثنيّة.

26 *Jhon Wright Libya Chad and the Central Sahara ص 34 –Hurst 35 London

ولكن تبلور هذه العلاقات وإحداثها لوقائع جديدة متشابكة جرى منذ عهد يوسف باشا القرمانلي الذي تولى الحكم في طرابلس عام ١٧٩٤ بعد أن قتل أخاه الأكبر وعاقب الآخر، وحكم لمدّة ٣٨ سنة بنفس الأسلوب القاسي الفظّ. وقد وصفه أحد المؤرّخين بقوله: " كان طاغية متوحّشاً لا أخلاق له، لم يحترم قطّ إلتزاماته مالم تتفق مع مصالحه الشخصيّة. ورغم ذلك كان يوسف أعظم باشاوات القرمانلي. لقد عمل على تحقيق مطامح لبلده بأسلوب في منتهى الغِلظة، واستعمل جيشه ببراعة ضدّ القبائل المتمرّدة دائما في الدّواخل، ممّا جعل نفوذه محسوساً وإسمه يثير الرّعب إلى مدى وصل برنو [٢٧]. وفي الفترة من ١٧٩٥ - ١٨٠٥ رسّخ سلطته. وفي الفترة ١٨٠٦ – ١٨١٧ أخضع ليبيا بكامل حدودها الحاليّة وفرض حكمه المباشر على الواحات التجاريّة الرئيسيّة في الدّواخل. ومن ١٨١٧ حتى ١٨٢٤ عمل على تأسيس ونشر نفوذ طرابلس عبر الصحراء إلى داخل السودان الأوسط. وفي بداية عهده استطاع أن يعزّز سلطة وسمعة وثراء طرابلس بفضل انهماكه في غارات القرصنة في البحر الأبيض على بواخر الملاحة التابعة للدول الأوروبية الأصغر حجما، بينما كانت الأخرى الأقوى والأكبر التي عادة ما تحجم عن هذا النشاط،، منشغلة بحروب نابليون. وحتى قبل صعود هيبة بريطانيا بفضل انتصارات نيلسون وطرده للفرنسيين من مصر ومالطا، فإن والي طرابلس رجب باشا كان يستجيب لطلبات القنصل البريطاني، في أن تقوم البعثات البريطانيّة بعمليّات الاستطلاع للدواخل الأفريقيّة، انطلاقا من طرابلس، بحجّة الإكتشافات الجغرافيّة والعلميّة. والحقيقة أنها كانت تهدف الى رصد عمليّات تهريب العبيد هناك، وتتبّع الطرق الرئيسية التي يستعملها المهرّبون. ومن أهم تلك البعثات التي شجّعها الوالي العثماني المذكور رحلات كلّ من لوكاش وهورنيمان التي سلف الحديث عنها. ولا شكّ أن تجارة الرقيق التي انتشرت آنذاك في تلك الأقاليم وأثرت في الحياة الليبيّة وأوضاعها الديموغرافيّة والإقتصاديّة، لجديرة بإعطاء نبذة عنها كما يلي:

---

27 Bovill في Missions ١٥٠ جزء(١) ص